الرحيل

بقلم ليلى العثمان

ربت على كتفها برفق .. بينما كانت لا تزال مقرفصة ترتب الاشياء في الصندوق الحديدي :

ـ هل انتهيت يا أم هجران ؟

تهز كفها بحيرة :

والله يا أبا هجران لا أزال محتارة ما الذي آخذه ، وما الذي أتركه .

يقرفص قريبا منها .. شيء حاد يخترق عظامه حين يلمح بندقية الصيد . يمد يده للصندوق . يسحب البندقية . يتساءل :

ـ يا أم هجران ما حاجتنا لهذه ؟ كان مكانها على الحائط أفضل وآمن .

تربعت على الارض لتريح ساقيها بعد قرفصتها . في عينيها تلوح سحابة حزن .

ـ يا أبا هجران .. هذه هدية أبيك . احتفظنا بها طيلة هذا العمر ، لذا سأحملها معي .

ـ لن نحتاجها . ولهذا أفضل أن تبقى هنا .

تتنهد :

ـ من يدري ؟

يضحك هازا رأسه . فتقع عيناه على الطرف الاخر من الغرفة :

ـ هه ! صندوق حديدي اخر .. ماذا به يا ترى ؟؟

قفزت في لحظة . بخفة رغم ارهاقها . أسرعت الى الصندوق . جلست عليه .. رفعت ذراعيها ، حلفت :

ـ والله والله يا أبا هجران لو فصلت رأسي عن جسدي فلن اسمح لك بترك ما في الصندوق .

قهقه قهقهة مبحوحة ، وهو يعلم ما وراء هذه اليمين:

ـ فقط أخبريني ما الذي بداخل الصندوق .

ـ أشياء غالية علي .

ـ مثلا ؟ قد تكون غالية علي أنا أيضا .

ـ لا يهم أن تعرف . هي غالية ، والسلام .

يقترب منها بوداعة ، يرفع خصلة من شعرها انزلقت على جبينها . يجلس بقربها على الصندوق .

ـ أليس من حقي أن أعرف ما الذي يحتويه هذا الصندوق الذي سيسافر معنا ؟

ـ بلى .

ثم تضيف متـرددة :

ـ ولكنني أخشى ان عرفت أن تغضب ، ثم تفرغه من محتوياته .

ـ أعدك أن نتفاهم . دعيني أرى .

يزيحها برفق ، يفتح الصندوق ، يرتفع حاجباه دهشة .. ينظر اليها . تصطدم نظرته ببريق الاصرار والتحذير والتذكير بالوعد .

ـ ما هذا يا أم هجران ؟

تمد يدها . تشير لمحتويات الصندوق . تنقل أصبعها من حاجة الى أخرى .

ـ هذه قدور أعتز بها . انها جهاز عرس أمي . نحاسية أصلية لا تجد اليوم مثلها بعد أن كثر الغشاشون والسماسرة . وهذه صفيحة قديمة كانت أمي تغلي بها ملابس أبي ، وما زلت أغلي بها ملابسك . وهذه بعض الملاعق والشوك والسكاكين الفضية التي ورثتها عن أمي . وهذه لعبة هجران ...

وتجهش :

ـ أم تريدني أن أدفنها هي الاخرى كما دفنت هجران؟!

ـ لا تذكريني بالمأساة . انما يا عزيزتي لا داعي لنقل كل هذا ، سنجد هذه الاشياء في البلد الاخر .

تتحداه :

ـ لا .. مثل هذه لن تجد .

تسحب العلبة التي بها الفضيات . تمدها أمام عينيه المتنقلتين بين أغراض الصندوق وتكمل :

ـ قد تجد أفضل منها . نعم . أثمن منها .. نعم .. ولكنك لن تجد مثل هذه . انها أثرية .

عيناه المتنقلتان تلمحان شيئا :

ـ وهذا .. ما هـذا هو الاخر ؟؟
ـ كتـب !
ـ أيـة كتـب ؟؟
ـ كتبك .. القديمة التي تحبها وتقرأها باستمرار .
يسحب نفسـا طويلا :
ـ وما حاجتنا لها هي الاخرى ؟ الكتب تملأ العالم . وسنجد منها الكثير أينما ذهبنـا .
تصـرخ :
ـ ليس مثل هذه يـا رجل !
بنفد صبره . يجلس . يضع رأسه بين كفيه . عيناه مطرقتـان على الارض العارية .
ـ أين السجـادة ؟
ـ هنـاك .
ـ أيـن ؟
تشير باصبعها الى زاوية الغرفة . يلمح السجـادة ملفوفـة بالحبـال :
ـ اياك أن تقولي بأنك ستأخذينها هي الاخرى .
ـ طبعا سآخذها . وفيها لحافنا الصوفي أيضا .
يهـب واقفا ويرتفـع صوته :
ـ يا أم هجران .. تتصرفين وكأننا سنترك البيـت الى الابـد .
ترد بصـوت حزين :
ـ من يدري ؟ قد تطيب الغربة . فهل أترك أشيائي الغـالية هنا ؟
ـ يا عزيزتي ! انها سنة ! سنة واحدة فقط . نجرب حظنا كما فعل غيرنا . فقد نستطيع توفير مبلغ محتـرم نستطيع ان نشتري به قطعة الارض التي اضطررنا لبيعها قبـل فترة .
تنسـاب دموعها صامتة على خديها :
ـ سنة ! من يدري ؟ قد تكون سنة وقد تكون مئة .
يهز رأسـه .. يشدد على كلماتـه :
ـ فقط لو تصدقينني وتثقين بكلامي .
ـ أثق بك . لكنني لا أثق بالظروف .
وتتركه في دائرة حيرته . وتمضي خارج الغرفة .

* * *

تقلبت في الفراش . عذبه هذا التوتر الذي يحركها . خامره احساس عجيب بأنها قد تموت الليلة . فقد تكون هذه أمنيتهـا أو ربما تصبـح غدا وقد اتخـذت قرارا بعـدم السفر .
زفرت .. حركت قدميها. سحبت اللحاف عن جسدها:
ـ ما بالك يا أم هجران ؟
ـ أشعر بموجة حر مفاجئـة .
ـ لكن الجـو بارد .
ـ لا أدري .. شعرت ، والسـلام .
استدار ناحيتها . ارتكز على كوعه . اقترب بشفتيه من أذنهـا :
ـ شيء ما يقلقك يـا أم هجران !
ـ نعـم .
ـ مـا هو ؟
ـ أقول لنفسي ماذا لو سافرت أنت وحدك . وبقيت أنا هنا بانتظارك . انها مجرد سنة كما تقول وسأحتملها .
ـ لا . لا أستطيع تركك وحـدك .
ـ أنا بين أهلي ، وفي مدينتي . لن ينقصني شيء .
لا شعوريـا ! يلقي عليها برده :
ـ من يـدري ؟ قد يطول الغياب .
وانتفضـت .. أرعشتها الكلمات الصـادقة . خفق قلبها . حرك الخوف المستسلم في أعماقها . فانتصبت في الفراش ثـائرة :
ـ أرأيت ؟؟ انك تشكك في فترة الغياب . قلت لك ، قد تطيب لك الغربة . وتمضي السنوات وأنت لا تقدر على جمع المبلغ الذي تحلم به. تلومني يا أبا هجران ..تلومني.
ـ يا حبيبتي ! هل تطيب الغربة لانسان يحب أرضه؟ صدقيني انها سنة واحدة : فلنجرب .
ـ وبيتنـا ؟
ـ سينتظـر ؟
ـ وهل تضمن أن يبقى في مأمن من اللصوص وقـد كثـروا في المدينـة ؟
ـ آه ! لقد ذكرتني بأمر لم أحدثك عنه بعد .
ـ تعتدل في جلستها ، في صوتها رنة فضول :
ـ أمر ! اي أمر ؟؟
يحك رأسـه ثم يمسـح عليه :
ـ في الحقيقـة يا أم هجران فانني أفضـل أن تبقى للبيت حركته الدائمة . ثم انني أخشى على شجيرة الورد أن تذبل ، وكذلك شجرة الحناء والياسمين ، لـذا فقـد كلفت موسى أن يبقى في البيت يحرسه ويرعاه .. و..
وشهقـت :
ـ موسى ؟
ـ أجـل .
قالهـا وهو يعلم أنه سيواجه بثورة ثم أكمل :
ـ هـل في الامر ما يزعجـك ؟
ـ طبعا ! موسى هذا الولد المتشرد القادم من البراري؟
في محاولة للاقنـاع يقول :
ـ يا أم هجران . موسى شاب طيب . صحيح انـه جاء الى هنـا متشردا لا يعرف أحد أصله وفصله ، لكنه شاب نشيط ذكي استطاع أن يعمل . وأن يكسـب ثقة الناس . ألا ترين تجـار المدينة كيف يكلـون له بعض الاعمال ؟! حتى أن بعضهم يودعون أموالهم عنده .
ـ أعلم ! وارى ! ولكن هذا شيء وسكناه في بيتنـا شيء اخر . لا يجـوز ابدا .. ابـدا . اغراضنـا .. حاجياتنـا .. و..

ويقـــاطعها :

ـــ وماذا ؟ كل شيء سيبقى كما هو . سيأتي بفراشه وبعض أغراضه التي يحتاجها وسيسكن في الغرفـــة التي في الجهة الشرقية ولا علاقة له بالبيـــت عدا حراستـــه وتفقـــد أموره .

ـــ الشرقية ! أو الغربية . كلهـــا جهات بيتي ، ولن أسمـــــح .

ـــ يـــا أم هجران . سيهتم موسى بالحديقة . ستزهر . وهذا خير من أن تذبل . انني أريد أن يبقى بيتنا أخضر .

ـــ آه يا أبا هجران . بعدنا يسكن البيت هذا المتشرد؟ انني لا أحبـــه . ولا أرتاح لوجهه .

يضحـــك :

ـــ على أية حـــال لن تري وجهه .

تصمت . ثم فجأة كمن تذكرت شيئا هاما .

ـــ سآخـــذ البندقية معي . لن أتركها معلقـــة على الحائط . قـــد يستعملها !

يضحك ضحكة هازئة ، يطبطب على وجنتيها برفق :

ـــ لا تخافي ! عنده بندقية كبيرة . ومسدس أيضا .

ـــ ولو ! سآخذ بندقيتنا .

يفرح لاصرارها رغم رفضه للامر . يبتسم ثم يقبلهـــا من خدها قبل أن يستسلم للرقـــاد .

لكنها لم تهدأ . فقد ألحت عليها فكرة التجول في انحاء البيت العزيز . تتفقد . وتتذكر . وتحزن حتى البكاء كلما تداعى طيف هجران الطفلة كما يتداعى حلم سريع .

تجول عيناها في الغرفة .. تهمس لنفسها :

ـــ لن يكون سهلا علي أن أغادر هذا البيـــت لكنهـــا رغبته التي لا بد أن أخضع لها .

* * *

امتـــلأت العيون بالدموع .

ـــ سنشتاق لكم يا جماعة .

ـــ ونحن سنشتاق أيضـــا .

وتبكي الجـــارة أم كفـــاح .

اكتبـــوا لنا .

يهز أبو هجران رأسه علامة الايجاب . الغصة تسد الطريق أمـــام صوته .

بحـــرارة يهتـــف أبو شـــرارة صاحب البقـــالة التي يتعـــاملون معهـــا :

ـــ طمئونا عنكم باستمرار .

يهز أبو هجران رأسه وتؤاتيه الشجاعة :

ـــ سنفعل يا أبا شرارة ، ولن أوصيك بالبيت .

ـــ بيتك في العين . سأتابع موسى ولو ..

يحاول أبو هجران أن يسكته لكنـــه يكمل :

ـــ ولو أنك أوكلـــت أمره للغريب . كنـــت أولى بهذا الشـــرف .

ـــ بسيطة يا أبا شرارة . لم أرد أن أزيد مسؤوليات أحد من الجيران .. وموسى لن يتأخر عن القيام بواجبه .

كانت أيدي الجيران تنقل الحاجيات الى السيارة بينما كانت النسوة يمسحن دموع الفراق . وقد أرهفت منهـــن المشاعر . قدمت احداهن مصحفا . وقدمت الاخرى صورة جميلة . وثالثة قدمت عنقود عنب صناعيا بهيج اللون .

ـــ تذكرينا يا أم هجران . لا تنسي الحبايب !

وبكت حين دعاها أبو هجران لتركب السيارة بعد أن حملت الاغراض . لكنها ما أن رفعت قدمها لتضعهـــا في السيارة حتى تراجعت :

ـــ لقـــد نسيت شيئا هاما !

وتتعانق دهشتها بدهشة الواقفين .

ـــ مـــاذا ؟؟

يستفسر أبـــو هجران منها :

ـــ نسيت مفتـــاح البيت .

يزفر أبو هجران :

ـــ أي مفتاح ؟ ولمـــاذا المفتاح ؟

ـــ أوتظن انني لن آخذ معي مفتاح بيتي ؟

ـــ ما الداعي لاخذه وموسى سيبقى هنا ؟؟

ـــ لا بد أن آخذه . نفرض أننا عدنا فجأة بعد السنة ولم يكن هذا الموسى بالبيت . هل نبيت في الشارع ؟

تثور شهامة أبي كفاح . يضرب على صدره :

ـــ « ولو » يا أم هجران . تنامين في الشارع وبيوتنا كلهـــا بيوتك ونحن الضيوف ...

تحرك رأسها علامة الاسف . ثم تهرع الى حيث يقف موسى بعينيه الجـــامدتين .

ـــ أعطني مفتاحا . وابق الاخر معك .

ابتسامة عجيبة ترتسم على ثغره لا تبين الا لعيـــون أم هجران . يفك حزمـــة مفاتيحه ويناولها المفتـــاح الذي تريد . تدســـه في صدرها .. تضغط على المكـــان .. تتنهـــد براحة .

محرك السيارة يدور . يناديها ابو هجران .. لكنها تنفلت عائدة الى البيت . الحزن ينبع من صدرهـــا الذي يحضن المفتاح ولا بد أن يحضن حفنة تراب صرتها في ورقة ودستها مع المفتاح . خرجت مسرعة . دلفت الى السيارة . عيناها معلقتان بالبيت . ترى فروع الياسمين التي زرعتها منذ شهور . ترى شجرة الحناء زاهية . وترى شبـــاك غرفتها الاخضر .. ترى الحب ، كل الحب مزروعا في كل الجنبات . وتشم رائحة الحنان .. تفوح .. تدخـــل الى رئتيها .. الى أعماقها ..

أصوات الجيران ما زالت تتلاحق .. تلح .. وترجو ..

ـــ اكتبي لنا .. طمئنا .. لا تنسينا . و ..

ـــ موسى .. تعـــال !

يقترب .. نظرته الجامدة ذاتها :

ـــ اسمـــع . اياك أن تهمل الحديقـــة . ولا تنس أن تنظف الحجرات ولا تستعمل أشياءنا الخاصة . أقصـــد

أباريقنا وصحوننا ..

و.. ويعمل محرك السيارة . فترفع صوتهـا الذي أضعفـه هدير المحرك .

ـ ولا تترك البيت بلا نور .. افتح النور الذي عنـد مدخله أما عريشة العنب فلا تنس أن تطعم منها جيراننـا كما نفعل دائما .. و...

وقبل أن تكمل ! تتحرك العجـلات .

موسى واقف لا يتحرك بانتظار أوامر لا تنتهي . يدها تلوح للجيران .. مودعة . وعيناها تعانقان البيت . قبل أن يجيء صوتها للمرة الاخيرة :

ـ موسى .. لا تنس شجرة الحناء .. و « السـت المستحيه » والياسـ ...

* * *

في الليلـة ذاتها كان موسى قد غير أقفـال البيت وكذلك نظـام الحجرات .

الكـويت

صدر حديثا :

النمور في اليوم العاشر

قصص بقلم

زكريا تامر

بدأ زكريا تامر حياتـه حدّادا شرسا في معمل . وعندمـا انطلق من حي « البحصـة » في دمشق بلفافته وسعاله المعهوديـن ليصبح كاتبا ، لم يتخلّ عن مهنتـه الاصلية ، بـل بقي حدادا وشرسا في وطـن من الفخار . لم يترك فيه شيئا قائما الا وحطمه . ولم يقف في وجهه سوى القبور والسجون لانها بحماية جيدة .

وعندما يأتي القـارىء الى نهايـة هذا الكتاب العجيب ، يشعر بأنه محاصر كالقلم في المبراة . وانـه عار من كل شيء في اقسى صقيـع عرفه القدر . ولا يملك شيئا سوى راحتيه ، يستر بهما وسطه . وهو في وقفته الضالة والمخجلة تلك على رصيف المائة مليون أو أشبه ، لا ينقصه الا اطار في قاعة محاضرات ، وبحاثة في علم « بقاء الانواع » يشير اليه بطرف عصاه أمام طلابه ويقـول : كنا ندرس يا أولادي من قبـل كيف يتطـور المخلوق البشري في مناطق كثيرة من قرد الى انسان . ولآن سندرس كيف يتطور المخلوق البشري في هذه المنطقـة من انسان الى قرد . وأهله وحكامـه يتفرجون عليه من النافذة وهم يضحكون .

« محمد الماغوط »

منشورات دار الآداب